دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الاستشراق ، آثار وأبعاد
المصدر:	مجلة الآداب العالمية
الناشر:	اتحاد الكتاب العرب
المؤلف الرئيسي:	الشاهر، عبدالله
المجلد/العدد:	س 38, ع 155,156
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2006
الشهر:	صيف / خريف
الصفحات:	165 - 174
رقم MD:	492427
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	الثقافة الكونفوشوسية، الاستشراق والمستشرقون، العولمة الثقافية، حوار الحضارات، الحضارة الإسلامية، الحضارة الغربية، الهوية الثقافية، الثقافة العربية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/492427

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الاستشراق ، آثار وأبعاد

د. عبد الله الشاهر

يجمع المفكرونَ العربَ في الفترةِ المعاصرةِ على أنَّ الفكرَ العربيَّ يخترقُهُ الغربَ في كلّ رؤاه ومفاهيمه ومناهجه، وهذا الاختراق ليسَ وليد اللحظةِ المعاشةِ وإنّما هو جملةُ تراكماتٍ لزمنٍ طويلٍ كانت أُسسهُ ومبادؤه تعتمدُ على الفكرِ الاستشراقيّ.

فالاستشراق في صورتهِ العامةِ عبارةً عن ميدان الاهتمامِ الأوربيّ بكل مجالات العلم والثقافة والتاريخ والأديان في الشرق، وهو تيارٌ كبيرٌ ذو أبعادٍ سياسيةٍ واجتماعيةٍ وثقافية وفنيةٍ يهدفُ إلى صبغ حياة الأمم عامة والعرب والمسلمين بخاصة بالأسلوب الاستشراقي ، فالشرق كما يعتبره "آرنست رينان" ضرورةٌ ثقافيةٌ بالنسبة للغرب على الرغم من أحكامهِ الكثيرة المتعسفة في حق البنية العربية الإسلامية.

والشرق هنا كلمةٌ لا تنحصر في الموقع الجغرافي، ولا تقتصر على جانب آسيا وبلاد الشام أو بلاد الشرق العربية والإسلامية ؛ بل تشمل أيضاً مناطق واسعة في وسط أفريقيا وشرقها وغربها ومن هنا يمكن لنا أن نتساءل هل الشرق كيان كلي أم أنّ مفهومه يختلف باختلاف الجغرافية والثقافة التي تميز المجتمعات التي تندرج مكانياً فيما سمي بالشرق فالنظرة التي اتخذها مفهوم الشرق عبر التاريخ الغربي منذ أن تكونت المواجهة الحضارية بين الشرق والغرب كانت مرتبطة بالوعي العام للإنسان الغربي أولاً وبوعيه السياسي وتوجهات هذا الوعي ثانياً. وإذا كان هذا الامتداد الكلي عن الشرق فمن المعقولية أن نحدد في بحثنا هذا عن أيّ شرق نتحدث وماهي الحدود الجغرافية للمتخيل الغربي عن الشرق. والجواب هنا يأتي على لسان إدوارد سعيد الذي يقول " الشرق بالتحديد هو الشرق العربي المسلم، والاستشراق هنا يحمل في داخله سمة موقف أوربي إشكالي إزاء الإسلام" إذن فالاستشراق هو في تطلعه العام رؤية سياسية للواقع لأنه ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي والتي شملت حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته ما أسهم في صياغة التصورات الغربية عن العالم العربي والإسلامي معبراً في ذلك عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما.

إذاً صلة الاستشراق بالعالم العربي والإسلامي قديمة إذ يرجعها بعض المؤرخين إلى احتكاك المسلمين بالرومان في غزوة " مؤتة " ثم غزوة "تبوك" ثم الحروب الصليبية حين بدأ الاحتكاك السياسي والديني بين الإسلام والمسيحية الأوربية في فلسطين. ويرجع البعض منها أيضاً إلى الحروب الدموية في الأندلس عام 1085م. وهناك مؤرخون آخرون يرون أنّ نشأة الاستشراق جاءت لتلبي

حاجات الغرب للرد على الإسلام ومعرفة أسباب القوة الدافعة لأبنائه حتى وصلوا إلى أسوار فيينا، بينما يرجع آخرون من الباحثين الأسباب إلى حاجة الأوربيين المستعمرين إلى فهم عادات وتقاليد وأديان هذه الشعوب التي استعمروها لتوطيد سلطانهم وتثبيت سيطرتهم الاقتصادية عليها ما دفعهم إلى تشجيع الاستشراق والعناية به في صور شتى.

ومهما كانت الدوافع والأسباب التي أوجدت الاستشراق فإن ما آل إليه الاستشراق شمل في توجهاته وأهدافه جميع الدوافع التي ذكرناها سالفاً إن كانت بشكل مباشر أو غير مباشر في صيغ تكاملية عبّرت عن نفسها في سلوكيات الفعل السياسي الذي مورس على الشرق.

ولكي لا نجانب الحقيقة فلا بد من تحديد بداية للاستشراق وإن كان من العسير تحديد الاستشراق بسنةٍ معينة إذ إن بعض المؤرخين يرى أن مفهوم الاستشراق في أوربا لم يظهر إلا مع نهاية القرن الثامن عشر فقد ظهر أولاً في إنكلترا عام 1779م ثم في فرنسا عام 1799م كما أدرج في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1838م وذلك بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوربية. على أن الاستشراق اللاهوتي قد بدأ وجوده بشكل رسمي بصدور قرار مجمع فيينا الكنسي عام 1312م بإنشاء عدد من الكراسي لدراسة اللغة العربية كذلك ومهما يكن من بعد تاريخي أو قرب فالعبرة بالنتائج وهذه النتائج تبدت في صراع أسفر عن كثير من الويلات وأن الاحتكاك الذي حصل بين الشرق والغرب سواء كان من الفتح الإسلامي أو أثناء الحروب الصليبية لم ينتج في الوعي والمخيلة الغربية إلا في صورسلبية ونظرات قدحية للعربي

والمسلم، فالصور التي يعتمد عليها الأوربي في حكمه الانتقاصي عن العربي والمسلم أخذها من مراحل تاريخية ممتدة في الزمن نابعة بشكل جوهري من الخطاب الحاقد للاستشراق فلورانس براون يقول " إن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الغربي " وقد جاء في تقرير وزير المستعمرات البريطاني "أومسيي غو" لرئيس حكومته عام 1938 " إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه وليس الإمبراطورية وحدها ؛ بل فرنسا أيضاً " فالاستشراق برمته لا يبحث عن الشرق بذاته بقدر ما يستقصي الأشكال المتخيلة التي نسجتها المخيلة الغربية عن الشرق ولذلك فإنّ "تيري هانتش" يقول إنه لا يتكلم عن الشرق بقدر ما يتكلم عن الغرب ذلك أن الشرق منفلت دوماً، موجود في كلّ مكان وفي اللامكان، مبثوث في ثنايا الكتب وفي اللوحات والشاشات والأزقة، يجمع بين العنف والطيبة، حكيم ومجنون، متصوف وراغب، هذه الثنائية هي محاولة للنبش في الصورة القابعة في المخيلة الغربية حول الإنسان العربي والمسلم.

وفي الحقيقة أن الفكر العربي مخترق من الغرب بفعل الاستشراق ومرتبط فيه بشكل أو بآخر ؛ بل إن هذا الغرب الذي كثيراً ما تمّ التعامل معه على أنه تناقض أو في بعض الأحيان بوصفه مشكلة فقد احتلّ موقعاً متميزاً في النسيج الاجتماعي العربي، هذا الحضور الكاسح للغرب في الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة انعكس وجودياً في أسلوب صياغة الكائن العربي لذاته ولمجتمعه وللعالم، فحتى الشيخ السلفي في نظر "عبد الله العروي" لم يَبْنِ عناصر خطابه الدفاعي والسجالي إلا

اعتماداً على معطيات جديدة عن الاستشراق على إيجادها وخلقها ومن ثم لم ينفلت الخطاب السلفي من تأثير الاستشراق فيه بالرغم من العداء أو التبرم المبدئي من فلسفاته وسياساته ونماذجه ولذلك فإن سؤال الغرب بالنسبة للعرب كان دائماً مصدر دهشة وحيرة وانفعال فهو تارة تجسدي للعقل والتقدم والنزعة الإنسانية، وتارة أخرى قوة مسيطرة تعرقل نهضة الآخرين وتتحول إلى عنف وحشي وتدخل غاشم، إنه غرب الإخاء والمساواة وحقوق الإنسان وغرب العدوان واللاتكافؤ والاحتقار والاستعمار.

وعليه فقد حوّل الإعلام الغربي الإرهاب إلى ظاهرة عربية والتعصب إلى ظاهرة إسلامية ومنذ القرن التاسع عشر أصبح الشرق فريسة للمدافع والرأسمال وعرضة للاستيهامات الغربية وهذا ما يبدو لنا أن تحالفاً واضحاً قدتمّ مابين السيف والقلم لتطويع الشرق كموضوع للعلم وكفضاء للدمج والاحتواء ، ولذلك أصبح الغرب إلى كونه قوة مادية سلطة علمية تفرض على الشرق ما تعرفه هي عنه وعن ماضيه وهذا بفضل الاستشراق إذ بلغ مجموع ما ألفوه عن الشرق في قرن ونصف قرن " منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين " ستين ألف كتاب. بينما كان الإجمالي التراكمي لكل ما ترجمناه منذ عصر المأمون إلى الآن في حدود عشرة آلاف كتاب وهو يساوي ما تترجمه إسبانيا حالياً في عام واحد.

إننا ارتضينا أن ينوب عنا غيرنا في صناعة صورة ثقافتنا فالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم قام به مستشرق ألماني والمعجم المفهرس للأحاديث النبوية الشريفة قام به مستشرق هولندي وترجمة ألفاظ القرآن الكريم إلى الفرنسية قام

بها مستشرق فرنسي، إننا تركنا نصوصنا لغيرنا كي يدرسوها وينقحوها فنسمع عن مركز الدراسات الشرقية في بطرسبورغ " لينينغراد سابقاً " يخوض في علاقة النص القرآني بالشعر الجاهلي.

ومع إقرارنا بأن للمستشرقين فضلاً كبيراً في إخراج الكثير من كتب التراث ونشرها وأن الكثير منهم يملكون منهجية علمية تعينهم على البحث وأنه من الإنصاف أن نذكر من أن هناك مستشرقين أنصفوا الحضارة العربية والإسلامية من أمثال هادريان ريلاند ويوهان رايكة وسلفستر دي ساسي وتوماس أرنولد وغوستاف لوبون وغيرهم لكننا في المحصلة نستنتج من هذا كله أن الشرق لا قيمة له خارج ما يمنحه الغرب له من أحكام وآراء وأفكار وبذلك يغدو الشرق نتاج فكر الغرب وما تنطق به فلسفته، فالغرب يعترف بمن يشاء ويلغي من يشاء وعلى هذا الأساس فقد أعطى الغرب لنفسه ولاسيما منذ القرن التاسع عشر صفة الوعي الكوني ومركز القيم الإنسانية.

وفي كل مرة ينهض شرق المتوسط للإعلان عن رغبته في السيادة على مقوماته وتحصين عناصر هويته تنتصب في اللاوعي الغربي كل الصور السلبية التي نسجتها المخيلة الغربية عن الإنسان الشرقي. إذاً لقد أصبح شرق المتوسط مصدر قلق غربي حاد ففي كل مرة يعلن شرق المتوسط عن حقه في الوجود تنفجر الأحكام المسبقة والمواقف المعيبة فأمام كل أزمة مع شرق المتوسط تنشط تعبيرات العداء الغربي للشرق العربي – الإسلامي الذي عانى وما زال يعاني من مظالم غربية لا حصر لها ما جعله من أكثر مناطق العالم توتراً فالشعور المناهض للعربي والمسلم قد توسعت آفاقه وأن اتجاها في الولايات المتحدة الأمريكية

يتزعمه كل من صموئيل هنتنغتون وبريان بيدهام وديفد اجنتوس وغيرهم مؤداه أن التصادم بين الهويات الثقافية أوضح ما يكون بين الغرب والعرب وهذا يتصل بالتعارض جزئياً بين القيم العلمانية والقيم الدينية وكذلك الغيرة من قوة الغرب وجزئياً بالسخط الناشئ من السيطرة الغربية على الهياكل السياسية التي ظهرت في الشرق الأوسط في عصر ما بعد الاستعمار وبالمرارة والمهانة الناشئتين عن المقارنة بين إنجاز الحضارتين العربية الإسلامية والغربية خلال القرنين الماضيين وعلى هذا الأساس فإن بريان بيدهام يرى في مقالة نشرها في "الإيكونوميست" في آب عام 1994 أن القرن القادم سيكون حلبة صراع بين حضارات ثلاث :

الأولى: حضارة الغرب التي نتجت عن النهضة العلمية والانفتاح الحضاري وأفرزت الرأسمالية والديمقراطية المعاصرتين

والثانية: الحضارة الصفراء أو ما تدعى بالثقافة الكونفوشوسية.

والثالثة: التي يشير إليها بيدهام وهي الحضارة العربية الإسلامية.

ويخلص بيدهام إلى القول بأن الحضارة العربية الإسلامية هي المنافس الفكري الوحيد للغرب في نهاية القرن العشرين.

وهنا لابد من طرح السؤال الآتي : إلى أي حد وصل هذا الادعاء في الفكر العربي؟

وهل يمكن تجاوز حدود الاستشراق والتماس علاقة جديدة مع الآخر.

في الحقيقة أن معقولية الادعاء نابعة من الأصول المنتجة للحضارة العربية الإسلامية ذلك أن هذه الحضارة والأصول المؤسسة لها لم يتم السيطرة عليها وهي بيت القصيد، وأن المشكلة الكبرى بالنسبة للغرب مع كل الدراسات الاستشراقية، هي أن هذه الأصول المنتجة للحضارة العربية الإسلامية لا زالت قائمة ومستقرة في ذاكرة ووجدان الإنسان العربي وهي غذاء يومي لكل الفئات الاجتماعية. ومما نبه الغرب أكثر وفي الآونة الأخيرة هي تلك القوة التي ظهرت بها الانتفاضة الفلسطينية وما ترجمته من إيمان مطلق بالمبادئ في الوقت الذي كانوا يعتقدون فيه أن الاحتلال أجهز عليها.

إذن فالعلاقة الجديدة التي تتجاوز حدود الاستشراق لن تكون بالنسبة للغرب إلا ذلك الانعكاس الكلي لرؤى استشراقية بعيدة عن روح التخاطب، فالحديث شائك وإشكالي ويدخل ضمن سياق رهان استراتيجي فالتحولات الكاسحة التي شهدها العالم في العقود الأخيرة تفرض على كل ثقافة تحديد ذاتها وإعادة صياغة مكوناتها فالزمن المعاصر لم يعف أحداً ولم يعترف مستقبلاً بأية جماعة هجينة لا تتقدم إلى العالم بملامح واضحة وإعادة الصياغة هذه لا يمكنها أن تتم دون التفكير في الاختلاف ودون أخذ نظرة الآخر وحضوره في الاعتبار وهذه القاعدة تنطبق على الغرب والشرق معاً.

ومهما تكن الأهداف التي انطلق منها الاستشراق دينية كانت أم تجارية أم سياسية أم علمية فإن هذا الاستشراق عمّق الصراع ودلّ على السبل وأبقى التوتر قائماً بالرغم من كل صيغ التعايش فالمسألة رهينة بالشروط العامة لتأكيد الذات وعلى هذا الأساس ومهما كانت النوايا فإنه آن الأوان إن لم نقل أننا تأخرنا كثيراً

لإعادة النظر في مفهوم الغرب الاستشراقي فكم التبس هذا المفهوم في الوعي واللاوعي العربي إذ إنّ المخيلة العربية الإسلامية تختزن صوراً متناقضة للغرب بالرغم من العداء أو التبرم منه وعلى الفكر العربي المعاصر أن يراجع تصوراته عن الغرب ومن ثم صياغة ممارسة نظرية جديدة تتعامل مع الغرب كاختلاف محفز لاستنهاض الذات وكتحد يتعين التحاور معه بلغة تفجر عناصر الهوية العربية في تعبيراتها الأكثر إبداعية.

المراجع :

1- الاستشراق . إدوارد سعيد ، ترجمة كما أبو ديب – مؤسسة الأبحاث العربية – بيروت 1981 .

2- المستشرقون، نجيب العقيقي– دار المعارف – القاهرة 1981 .

3- الاستشراق والمستشرقون، د. مصطفى السباعي – ط2 المكتب الإسلامي 1979.

4- حصوننا مهددة من داخلها ، د. محمد محمد حسين – مؤسسة الرسالة – بيروت ط7 ، 1982 .

5- العالم الإسلامي والمكائد الدولية خلال القرن الرابع عشر الهجري – فتحي يكن، مؤسسة الرسالة – بيروت ط2 – 1983 .

6- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. د. محمد محمد حسين – دار الإرشاد ، بيروت – طبعة عام 1970 .

7- الإسلام والحضارة الغربية ، د. محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط5 – 1982 .

8- الوحدة ، العدد (53) 1989 – العدد (54) 1989 .